أضواء على النبوّة (2 – 2)

بقلم: رائف محمد الويشى

20 يناير 2013

في الحلقة الماضية من هذه الدراسة تكلمنا عن بطون قريش وعرفنا أنهم عشرة بطون إجمالية من أربعين بطن فرعية ، وكان أهمهم هو بطن عبد مناف الذي ينقسم إلى فرعين ، الهاشمي والأموي ..
كما عرفنا أن بني هاشم كانوا يعبدون الله تعالى على الحنيفية الإبراهيمية ، وقد جلب عليهم كرمهم وحب الناس لهم الحقد من بقية القبائل ، خصوصا من الفرع الأموي ..
كما تعرفنا على المشاق التي لقيها النبي (ص) ، سواء في طفولته أو في بداية الدعوة في قريش ، وهو ما دفعه إلى إرسال المسلمين إلى الحبشة مرتين ثم قرر الهجرة إلى المدينة في عام 622 م ..

في هذه الحلقة الثانية والأخيرة ، سنقترب أكثر إلى الفرع الأموي – النصف الآخر من بني عبد مناف - لنقف على بعض المعلومات الدالة على حقدهم وكراهيتهم للإسلام ولرسوله ..

البطن الأموي ، وصمة العار

يقول ابن أبى حديد – توفى في عام 656 هـ - في شرح نهج البلاغة (ج 15 ص 198) أن أمية (تصغير أمة) لم يكن ابنا شرعيا لعبد شمس ، بل كان روميا عبدا عنده ألحقه باسمه ..

وربما يدل على ذلك أن معاوية بن أبى سفيان عندما أرسل خطابا إلى الأمام علي (ع) أثناء الصراع الدموي الذي أقامه ضد الإمام على (ع) قال فيه : إنما نحن وأنتم بنو عبد مناف ، فرد عليه الإمام بالجواب : " ليس المهاجر كالطليق ، وليس الصريح كاللصيق " ..

يقول ابن قتيبة الدينورى – توفى في عام 276 هـ - في المعارف (ص 586) ما يلي :
" كان أبو سفيان أعور العين من أصل غير عربي " ..

وبينما كانت عائلة عبد شمس قد عُرف عنها العنف وتسخير العاهرات في الزنا لبيع أطفالهم لجلب الأموال ، عُرفت عائلة بني هاشم – كما أسلفنا بالقول - بالكرم والقيم الرفيعة والحنيفية الإبراهيمية..

يقول عالم الأنساب هشام ابن الكلبي – توفى في عام 204 هـ - في مثالب العرب (ص 63) ، وابن أبى حديد – توفى في عام 656 هـ - في شرح نهج البلاغة (ج 3 ص 456) ، عن مولى رسول الله (ص) سفينة أنه قال ما يلي :
" أُمّ أُميّة الزرقاء وكانت في الجاهلية من صواحب الرايات ، وكان أُميّة ممّن اشتهر بالزنا وكذلك كان ابنه حرب " ..

لقد أحدث هذا النبأ العظيم باختيار محمد ليكون نبيا صخبا كثيرا بين قبائل قريش وفشلت كل الوسائل في التخلص منه ، فقد أظهر أبو طالب أنيابه الدفاعية لتحذير كل من يقترب من ابن أخيه بصورة أكثر مما فعلها عبد المطلب ، ونزلت آيات " عم يتساءلون ، عن النبأ العظيم " لتبين الصدمة التي أصبح عليها القرشيون ..

لقد حمى أبو طالب ابن أخيه ، وكانت أشد الأوقات أثناء حصار المشركين لهم في شعب أبى طالب ، فقد حاولوا تتبع النبي لاغتياله ، وكان النبي (ص) يقضى أوقاتا كبيرة مختفيا عن الأنظار في تلك الشعب ..

لما فشل القرشيون في النيْل من النبي (ص) اتجهوا لكل من أسلم من أنصاره ، فعذبوا نحو مائة منهم ، وضمنهم أولادهم وعبيدهم وإماؤهم وحلفاؤهم الأحرار ، كعائلة ياسر والد عمار (يمنيون حلفاء لمخزوم) حيث عذبهم أبو جهل حتى قتلت سمية زوجة ياسر وأم عمار ، فكانت أول شهيدة في الإسلام ، وتعرض آخرون للتعذيب مثل خباب بن الأرت - بلال بن رباح - عمار بن ياسر - خالد بن سعيد بن العاص ..

قرر الرسول (ص) إرسال بعثة من المضطهدين إلى الحبشة بعد انتشار التعذيب بين أصحابه ، كانت الهجرة الأولى في أحد ليالي شهر رجب عام 615 م ، أي بعد خمسة أعوام من البعثة النبوية ، كانت مكونة من إثنى عشر رجلا وأربع نساء وهم : عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت محمد ، وأبو سلمة وزوجته أم سلمة ، وأبو حذيفة بن عتبة وزوجته سهلة بنت سهيل ، وعامر بن ربيعة ومعه امرأته ليلى بنت أبي هيثمة ، ومصعب بن عمير ، وعبد الرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام ، وعثمان بن مظعون ، وعبد الله بن مسعود ، وأبو سبرة بن أبى رهب ، وحاطب بن عمرو ، وسهيل بن وهب ..

لم يدم المقام بالحبشة لهم سوى ثلاثة أشهر ، عادوا بعدها إلى مكة لسماعهم بإسلام عمر بن الخطاب وشيء من الحرية للمسلمين في مكة بعد انتشار قصة الغرانيق التي سجد فيها المشركون في صلاة النبي (ص) وهو يتلو آيات من سورة النجم ، لم يجد العائدون حرية التعبد في مكة التي سمعوا عنها وهم بالحبشة ، فاختبأ بعضهم في أودية مكة ، وتمكن البعض الآخر من العودة إلى الحبشة ..

(ملاحظة : قصة الغرانيق ملخصها – كما جاء في بعض كتب السنة - أن الشيطان إلتبس على الرسول (ص) أثناء الصلاة فقرأ بالخطأ بعض آيات النجم فسجد المشركون الحاضرون معه لما ظنوا أنه يذكر آلهتهم وكان منهم الوليد بن المغيرة ، فأرسل الله جبريل لتصحيح ما فعله النبي ، وكانت آيات التصحيح هي : وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره - إلى قوله -: ثم لا تجد لك علينا نصيرا : الإسراء 73 – 75 : راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري 2 / 340 ، وكذلك تفسير الطبري (17 / 131) آية 52 من سورة الحج.. ومن المهم أن نقول أن الشيعة يعتبرون أن قصة الغرانيق هي أسطورية ولم تحدث في الأصل ، وأنها جاءت ضمن الكثير من التحريفات التي وضعها أعداء الدين من كتاب ومفسرى بني أمية لضرب الإسلام من خلال قضية التوحيد ، لأنه - ص - لا ينطق عن الهوى ..) ..

قرر الرسول (ص) إرسال بعثة ثانية إلى الحبشة ، كانت قريش تشعر بحدوثها فأخذت تستعد للقبض على الفارين ، فوّت حسن تخطيط المسلمين الفرصة عليهم ، رغم أن عدد المسلمين الفارين بلغ ثلاثة وثمانين رجلا مع ثماني عشرة امرأة ، فقد وصلوا إلى المراكب العائدة إلى الحبشة بسلام ، كان جعفر بن عبد أبى طالب (ابن عم الرسول وشقيق علي) على رأس تلك المجموعة الكبيرة ..

أرسلت قريش عمرو بن العاص وعبد الله بن ربيعة مع كثير من الهدايا إلى النجاشي لاسترجاع الفارين ، إلا أنهما فشلا في ذلك ، رغم استعمال عمرو بن العاص كل دهائه وخبثه ، ومن ذلك إدعاؤه للنجاشي (وهو نصراني متدين) على الفارين بأنهم يسبون عيسى عليه السلام ، وقد حمل جعفر رسالة من النبي إلى النجاشي يطلب فيها إحسان من لجأ إليه من أصحابه ..

لجأت قريش إلى محاولة ثانية لتضييق الخناق على النبي وهى حصاره مع أقاربه من بني هاشم ، فوقعوا على بيان – الصحيفة القاطعة – من ثمانين عضو منهم واتفقوا على منع التجارة أو الزواج من بني هاشم حتى يسلموا لهم محمدا ، أمضت بنو هاشم ثلاث سنوات في شعاب مكة منعزلين حتى أصابهم الفقر بعد أن أنفقوا كل مدخراتهم ، ظل أبو طالب مدافعا عن ابن أخيه ..

مات أبو طالب في عام 619 م (قبل ثلاث سنوات من الهجرة) وله ست وثمانون سنة ، وقيل تسعون سنة ، وتبعته زوجة رسول الله (ص) السيدة خديجة (ع) بثلاثة أيام ..
سُمى العام بعام الحزن لشدة المصيبتيْن على الرسول خاصة وعلى المسلمين بوجه عام ، انكشف ظهر النبي (ص) بعد موت عمه الذي كان يدافع عنه ، وانتهزت قريش فرصة للخلاص منه ، وحدث في تلك الأثناء حادث الإسراء والمعرج للتفريج عن الرسول في عامه الحزين ..

عقدة أبى طالب عند الأمويين

يمثل أبو طالب بن عبد المطلب عم الرسول (ص) مشكلة كبيرة عند الأمويين ، فهو من حمى النبي (ص) في حصار شعاب مكة الذي استمر لثلاث سنوات ، وهو من شكل جماعة " كوماندوز " لحماية النبي (ص) من عمليات الاغتيال العديدة التي حاولوا فيها التخلص منه في هذا الإحضار ، هو من كان يخفيه في مكان ويعلن عن وجوده في مكان آخر ليشتت فكر المتابعين له ، وهو من شدد من أزر المحاصرين من بني هاشم في تلك السنين الصعبة ، صحيح أن الله كان يرعى النبي (ص) ، لكن هو الله الذي أرسل له عمه ليحمى الرسالة الوليدة ..

ذكر ابن هشام – توفى في عام 218 هـ - في سيرته (ج 2 ص 87) ، وابن كثير – توفى في عام 774 هـ - في البداية والنهاية (ج 3 ص 123) ، وأبو الفدا – توفى في عام 732 هـ - في تاريخه (ج 1 ص 179) أن الإمام جعفر الصادق (ع) قال ما يلي :
" إنَّ مثل أبي طالب مثل أصحاب الكهف ، أسرُّوا الإيمان وأظهروا الشرك ، فآتاهم الله تعالى أجرهم مرّتين " ..

لقد بذل القرشيون - ممثلين في الأمويين أثناء خلافتهم - جهدا كبيرا في التركيز على تزييف التاريخ الإسلامي في نقطتين ، وهما :
1- إثبات أن عائلة النبي الهاشمية (عبد المطلب وأبا طالب ووالد النبي وأمه) كانوا كفارا وماتوا على الكفر ، لإبعاد التركيز عن عائلاتهم التي كانت في أغلبها تعمل في العنف واستعباد النساء في الزنا لبيع أطفالهم ..
2- الرفع من شأن الصحابة (عدالة الصحابة) لتحل محل مكانة العصمة النبوية التي وهبها الله تعالى لأئمة أهل البيت بنص قرآني في سورة الأحزاب لا يمكن تغييره ، وجعل من الصلاة عليهم جزءً من تمام الصلاة ..

وكما يفعلون في كل تزييفهم ، فالأحاديث حاضرة كي تقنع من يشكك في كلامهم ، وهذه عينة منها :
روى البخاري في صحيحه (ج 4 ص 247) ، ومسلم في صحيحه (ج 1 ص 135) ، وأحمد في مسنده (ج 1 ص 206) ما يلي : " قال العباس للنبي : ما أغنيت عن عمك ، فوالله كان يحوطك ويغضب لك ؟ قال : هو في ضحضاح من نار ، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار " ..

لقد أجاب الإمام جعفر الصادق على هذه المسألة بالمختصر المفيد ، ونضيف إليه حديث النبي (ص) لعمته صفية بنت عبد المطلب عندما توفى ابنها ، وأغضبها عمر بن الخطاب ..

ذكر نور الدين بن أبى بكر الهيثمى – توفى في عام 807 هـ - في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (ج 8 ص 216) عن ابن عباس ما يلي :
" توفي ابن لصفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكت عليه وصاحت فأتاها النبي ﷺ فقال لها : " يا عمة ما يبكيك ؟ " ، قالت : توفي ابني ، قال : " يا عمة من توفي له ولد في الإسلام فصبر بني الله له بيتا في الجنة " ، فسكتت ، ثم خرجت من عند رسول الله ﷺ فاستقبلها عمر بن الخطاب فقال : يا صفية قد سمعت صراخك إن قرابتك من رسول الله ﷺ لن تغني عنك من الله شيئا ، فبكت فسمعها النبي صلى الله عليه و سلم وكان يكرمها ويحبها فقال : " يا عمة أتبكين وقد قلت لك ما قلت ؟ " ، قالت : ليس ذاك أبكاني يا رسول الله استقبلني عمر بن الخطاب فقال : إن قرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم لن تغني عنك من الله شيئا ، قال : فغضب النبي ﷺ وقال : " يا بلال هجر بالصلاة " ، فهجر بلال بالصلاة فصعد المنبر النبي ﷺ ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : " ما بال أقوام يزعمون أن قرابتي لا تنفع ؟ كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي فإنها موصولة في الدنيا والآخرة " ..

(ملاحظة : كان عمر بن الخطاب يشارك في ذلك الوقت في مجهودات الأمويين لتشويه بني هاشم ، فقال : " إنما مثل محمد في بني هاشم مثل الريحانة في وسط النتن " وهو ما أغضب النبي (ص) كثيرا واضطره للرد عليه بصورة قاسية – راجع سنن الترمذي حديث رقم 3616 ، الطبراني في المعجم الكبير ج 20 ص 286 ، الهيثمى في مجمع الزوائد ج 8 ص 396) ..

كان كبير علماء المدينة السبعة في جيل التابعين الأول سعيد بن المسيب – زوج ابنة أبى هريرة - من أولئك الذين روجوا بأن أبا

طالب مات كافرا ..

يقول البلاذرى – توفى في عام 297 هـ - في أنساب الأشراف (ص 74) بأن عقيل بن أبى طالب وخرمة بن نوفل وأبا جهم بن حذيفة كانوا من كبار من تخصص في الأنساب (راجع علماء الأنساب عند العرب لابن حزم ص 4) ، وقد رفع ثلاثتهم قضية أمام الخليفة الثاني عمر بن الخطاب يقولون فيها أن جدة سعيد بن المسيب كانت من فاحشات الجاهلية .. رد ابن المسيب على ذلك ونشر في الأحاديث موت أبى طالب على الكفر ، وقد نقل عنه ذلك البخاري ومسلم والبيهقى وغيرهم ..

أخرج أبو الفرج ابن الجوزى – توفى في عام 597 هـ - بإسناده عن الإمام علي (ع) مرفوعاً عن النبي (ص) أنه قال ما يلي :
" هبط جبرئيل علي فقال : إن الله يقرئك السلام ويقول : حرمت النار على صلب أنزلك ، وبطن حملك ، وحجر كفلك ، أما الصلب فعبد الله ، وأما البطن فآمنة ، وأما الحجر فعمه ، يعني أبا طالب وفاطمة بنت أسد " ..

أخرج السيوطي – توفى في عام 911 هـ - في التعظيم والمنة (ص 25) عن ابن عباس عن النبي (ص) أنه قال ما يلي :
" لم يلتق أبواي قط على سفاح ، لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة ، إلى الأرحام الطاهرة مصفىً مهذباً ، لا تتشعب شعبتان إلاّ كنت في خيرهما " ..

وروى السيوطي في الدر المنثور (ج 5 ص 98) عن رسول الله (ص) أنه قال ما يلي :
" لم يزل ينقلني اللهُ من أصلاب الطاهرين إلى أرحام المطهّرات ، حتى أخرجني في عالمكم ، ولم يدنّسني بدنس الجاهلية " ..

يقول المؤرخ اليعقوبى – توفى في عام 284 هـ - في تاريخه (ج 2 ص 26) أن رسول الله (ص) قال ما يلي :
" إن الله عز وجل وعدني في أربعة في أبي وأمي وعمي وأخ كان لي في الجاهلية " ..

ويقول اليعقوبى في نفس المصدر السابق (ج 2 ص 12) ما يلي :
" رفض عبد المطّلب عبادة الأصنام ، ووحَّد الله عزَّ وجلَّ ، فكانت قريش تقول : عبد المطّلب إبراهيم الثاني " ..

يقول ابن أبى حديد – توفى في عام 656 هـ - في شرح نهج البلاغة (ج 3 ص 311) أن رسول الله (ص) قال ما يلي:
" قال لي جبرائيل : إن الله مشفعك في ستة : بطن حملتك آمنة بنت وهب ، وصلب أنزلك عبد الله بن عبد المطلب ، وحجر كفلك أبو طالب ، وبيت آواك عبد المطلب ، وأخ كان لك في الجاهلية .. الخ **" ..**

يضيف ابن أبى حديد في نفس المصدر (ج 14 ص 165) ما يلي : " أجمع أئمة أهل البيت على إسلام أبى طالب " ..

قرر النبي (ص) اللجوء إلى المدينة ، فمهد لذلك بلقاء ستة من رجال المدينة في ذي الحجة من العام الثالث قبل الهجرة (يوليو 620) ، واتفق معهم على اللقاء في الليل المتأخر من يوم الثالث عشر من ذي الحجة في العام المقبل ، كان اللقاء الثاني مع إثنى عشر من نقباء المدينة في مساء 13 ذي الحجة بالعام الثاني قبل الهجرة (9 يوليو عام 621 م) فناصروه ، كانت تلك البيعة الأولى ..

روى أحمد – توفى في عم 241 هـ - في مسنده عن عبادة بن الصامت وكان من المشاركين أنه قال : كنت فيمن حضر العقبة الأولى ، وكنا اثني عشر رجلاً ، فبايعنا رسول الله على أن لا نشرك بالله ، ولا نسرق ، ولا نزني ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه في معروف ، فإن وفَّيتم فلكم الجنة ، وإن غَشِيتُمْ من ذلك شيئًا فأمركم إلى الله ، إن شاء عذبكم وإن شاء غفر لكم .. اتفق النبي معهم على اللقاء في الموسم التالي بعدد أكبر ، وأرسل معهم مصعب بن عمير ليعلمهم القرآن ..

كان البيعة الثانية في العام التالي في مساء متأخر من 13 ذي الحجة بالعام الأول قبل الهجرة (28 يونيه 622 م) وضم 72 رجلا وامرأتين ، فبايعوه على الإسلام وأن يحموه وذريته مما يحمون منه أنفسهم وذراريهم ولا ينازعوا الأمر أهله ، ثم هاجر إليهم في جوف ليل يوم 4 ربيع الأول من العام الهجري الأول (الموافق 15 سبتمبر 622 م) ، وانطويت صفحة مكة التي نزلت بها 82 سورة من القرآن ..

واصل القرشيون متابعتهم لاستئصال محمد وصحبه في المدينة ، فوقعت بدر في 17 رمضان 2 هـ (13 مارس 624) وهزموا فيها شر هزيمة وقتل قائدهم عمرو بن هشام المخزومى (أبو جهل) ، وفى العام ذاته فرض الصوم على المسلمين ، وتم تحويل القبلة إلى الكعبة بدلا من بيت المقدس ، وأجلى النبي (ص) أول قبيلة يهودية من المدينة بسبب عدائها مع المسلمين ، وتزوج علي بفاطمة ..

تصدر أبو سفيان بن حرب مهمة التعبئة لمحاولة ثانية لاسترداد الشرف المهان ، كانت المنازلة في أحد تحت قيادته وبمعاونة خالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل ، كان ذلك في 7 شوال عام 3 هـ (23 مارس 625 م) ، انتصر فيها أبو سفيان وأصبح حديث العرب ..

كان لابد من جولة ثالثة يحسمها أبو سفيان بنفسه ليثبت للعرب أن قيادة قريش في يد الأمويين ، أجرى اتصالات مكثفة مع يهود المدينة بقيادة كعب بن الأشرف ونجح في استمالتهم ليكونوا شوكة في ظهر النبي ، وكانت موقعة الأحزاب (الخندق) في شوال عام 5 هـ (مارس 627 م) ، أشار سلمان حينها على النبي (ص) بحفر خندق حول المدينة لحمايتها من الغزو ونجحت الخطة ..
حاصر القرشيون المسلمين وبرز فارسهم القوى عمرو بن معدى كرب وكان بطلا للعرب في المبارزة ، عبر الخندق مظهرا شجاعته نادرة طلبا للمبارزة ، خرج له بطل المسلمين علي بن أبى طالب ، لم تدم المنازلة وسقط عمرو صريعا ، وقد نال علي بن أبى طالب في تلك المعركة بحياة خمسة من مشركى الخندق ، فشل الحصار عاد جيش القرشيين بقيادة أبى سفيان خائبا بفعل رياح شديدة هدمت خيامهم (وأرسل الله عليهم ريحا وجنودا لم تروْها : الأحزاب آية 9) ..

(ملاحظة : كان الوليد بن المغيرة – والد خالد بن الوليد – هو أحد أغنى أغنياء قريش ، وكان كثيرا ما يردد : أينزل القرآن على محمد وأترك أنا ، وأنا كبير قريش وسيدهم وأبو مسعود الثقفي سيد ثقيف ، ونحن عظماء القريتين ، وقد نزلت فيه آيات في سورة المدثر : " إنه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر ، سأصليه سقر " ، وقد مات الوليد بن المغيرة بعد الهجرة بثلاثة أشهر عن خمس وتسعين سنة ودفن في الحجون بمكة) ..

يقول الجاحظ – توفى في 255 هـ - في رسائله (ج 2 ص 222) أن المسلمين قالوا للنبي (ص) يوم منازلة الخندق ما يلي : " إنّ أفرس الناس عمرو ابن ود العامري ، فردّ عليهم النبيّ قائلا : " أنَّ أفرَسَ النَّاسِ عَلِيُّ بنُ أبي طالِبِ " ..

كان واضحا أن بعض يهود المدينة من بني قريظة قد كسروا العهد الذي أخذوه مع النبي (ص) بعدم اشتراكهم مع مشركى قريش في حلف عسكري ضد النبي ، ولما تأكد النبي بخبر من جبريل عليه السلام شن في نفس يوم العودة من الخندق هجوما على بني قريظة تحت قيادة علي بن أبى طالب وقال حينها " لنصليْن لعصر في بني قريظة " ، انتهت تلك المعركة بعد حصار دام لمدة شهر تقريبا بقتل الكثير من يهودها ورحيل من تبقى إلى يهود خيبر ..

أدرك القرشيون بعد هزيمتهم في الخندق أنهم لا يستطيعون الخلاص من محمد وأصحابه ، قرأ النبي ذلك في تحركاتهم فزاد في دعوته لكبار القوم والماسكين بنواصي أمورهم ..
كان من هؤلاء ثمانة بن آثال سيد اليمامة ، كان رجل الأعمال الذي يمد قريش بالإمدادات الغذائية ، فقد وقع في أسر جند المسلمين في عام 6 هـ ، أسلم وأوقف الإمدادات لقريش .. انقلب سحر القرشيين عليهم ووقعوا في فقر من جراء معاداة النبي ، ومرت سنون 6 ، 7 ، 8 هـ بصعوبة بالغة على قريش ..

أراد النبي (ص) في عام 6 هـ (628 م) أن يفرض واقعا سياسيا على قريش على إثر هزيمتهم في الخندق (رغم أن

عددهم حينها فاق عدد المسلمين بثلاث مرات) فقرر العمرة إلى بيت الله الحرام ..

ذهب النبي في ذي القعدة عام 6 هـ (فبراير 628) بجيشه إلى مكة بغرض الحج دون أن يستأذن القرشيين ، كان يعلم أنهم غير قادرين عسكريا على المواجهة ، عسكر في منطقة الحديبية (25 كم من مكة) ..
كان من المفروض أن يذهب عمر بن الخطاب كمندوب عنه ليخبر قريش بعدم نية المسلمين للقتال ، لكن عمر تخوّف فذهب عثمان ، لما تأخر عثمان بالعودة ظن المسلمون أن القرشيين قد قتلوه ، لكنه عاد وجرت مفاوضات بين الطرفين ..

اعترف القرشيون في المفاوضات بدولة الإسلام وإخلاء الطريق للنبي وجيشه لثلاثة أيام وتوقيع هدنة لثلاث سنين ، اشترطوا استرجاع من يسلم منهم وعدم فعل العكس ووافق النبي.. قاد عمر بن الخطاب معارضة الاتفاق ، لكن الله سلم وبايع المسلمون بيعة الرضوان مجددين الثقة فيه على شروط صلح الحديبية .. عزز النبي اتصالاته في هذا العام وأرسل ما مجموعه 185 رسالة إلى رؤساء القبائل بجزيرة العرب ..

تحولت خيبر - الواقعة على مشارف المدينة – والتي لجأ إليها يهود بني قريظة إلى مركز للمؤامرات التي تحاك ضد الإسلام ، فعقد يهودها أحلافا عسكرية مع كل المناوئين للنبي ..

أمر النبي (ص) بتحرير خيبر في المحرم من عام 7 هـ (مايو 628) ، والنتيجة العامة هي أن أبا بكر ابن أبى قحافة قد فشل كقائد للجيش في فتح الحصن ، وتبعه عمر بعد أيام وفشل بأكثر من الفشل الذي أصاب صدّيقه ، وهو ما أدى إلى أن دعي النبي (ص) لطريح الفرش – ابن عمه - علي بن أبى طالب ، فشفى من مرضه وفتح الحصن المنيع بعد أن قتل قائد الحصن مرحب في مبارز حسمها بسرعة واقتحم الحصن وقتل وحده ثمانية آخرين من الفرسان داخله ، لكننا نؤجل الحديث هنا عن خيبر إلى مكان آخر ، ويعود ذلك لارتباطها الوثيق بفتنة " فدك " التي كانت المسمار الثاني – بعد خديعة السقيفة - الذي وقع فيه المسلمون في الصدر الأول من الإسلام وقسم ظهرهم حتى الآن ..

من الطبيعي أن قريشا ومركزها في مكة لم تكن بعيدة عن المؤامرات التي كان يصنعها اليهود ومركزهم في المدينة ومن حولها ، فقد أمدتهم بالرجال والسلاح سرا وشوهد كبار قادتها وهم يتحالفون مع اليهود (عكرمة بن أبى جهل – صفوان بن أمية – سهيل بن عمرو) ..
كان ذلك يعنى ببساطة أن قريش في حل من شروط الحديبية ، وهو ما أخذ النبي يستعد له بفتح مكة ، وكان ذلك الفتح العظيم في 20 رمضان عام 8 هـ ، الموافق 10 يناير 630 م ..

يتضح مما سبق أن النبي (ص) واجه ثلاثة أنواع من الأعداء الأشداء بالمدينة :
كان العدو الأول من اليهود في المدينة ، فقد رحبوا أولا بصاحب الرسالة في محاولة منهم لاحتوائه والسيطرة عليه ، ولما فقدوا سمعتهم وريادتهم بالمدينة وأعرض الناس عنهم أعلنوا الحرب عليه ..

كان العدو الثاني من المنافقين في المدينة ، وهؤلاء كانوا أخطر الأعداء ، فكانوا يؤمنون بالرسالة في النهار (أي بين الناس) ، وفى آخره يكفرون زمنهم قبيلة أسلم ، وقال فيهم الله تعالى سورة التوبة (101) : " وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم ! سنعذبهم مرتين ، ثم يردون إلى عذاب عظيم " ، وقد شكلت قبائل مكة مثل بني أمية وتيم حربة المنافقين وشوكتها فيما بعد عند انتقال قادتها بعد الفتح للعيش بالمدينة ، عاصمة الإسلام الوليدة ..

كان العدو الثالث من المشركين في قريش ، وكان هو واضحا في حربه على الرسالة وصاحبها ، وأعلن منذ اليوم الأول بأنه سيدافع عن مصالحه الاقتصادية ضد دعاوى المساواة والحرية والعدالة الاجتماعية ..
قال د. طه حسين في الفتنة لكبرى (1 / 79) عن سادات قريش ما يلي : " إن قريشا كانت تزعم لنفسها أرستقراطية متفوقة وقد اعترف لها العرب بهذه الأرستقراطية في جملتهم " ..

إن الحقد الذي تحمله قبيلة عبد شمس على أولاد العم من بني هاشم يضرب في جذور التاريخ ، فكما كان التناقض بين الشر والخير ، وبين قابيل وهابيل (أولاد الأب الواحد) ، كان الأمر كذلك بين بني عبد شمس أصحاب التجارة والتفاخر وحب الدنيا والعنف وشراء الذمم والفواحش وبين بني هاشم أصحاب الأعمال الخيّرة والفضائل بين الناس ..

يقول شيخ المؤرخين المصريين تقي الدين المقريزي – توفى في عام 845 هـ (1442 م) – في كتابه " النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم " ما يلي :
" إني كثيرا ما كنت أتعجب من تطاول بني أمية إلى الخلافة مع بعدهم من جذم (أي أصل الشيء) رسول الله وقرب بني هاشم ، وأقول: كيف حدثتهم أنفسهم بذلك ! وأين بنو أمية ، وبنو مروان بن الحكم طريد رسول الله ولعينه من هذا الحديث مع تحكم العداوة بين بني أمية وبني هاشم في أيام جاهليتها ! ثم شدة عداوة بني أمية لرسول الله ، ومبالغتهم في أذاه ، وتماديهم على تكذيبه فيما جاء به منذ بعثه الله عز وجل ، بالهدى ودين الحق ، إلى أن فتح مكة شرفها الله تعالى فدخل من دخل منهم في الإسلام ! فلعمري لا بعد أبعد مما كان بين بني أمية وبين هذا الأمر ، إذ ليس لبنى أمية سبب إلى الخلافة ، ولا بينهم وبينها نسب ، وقد كانت المنافرة لا تزال بين بني هاشم ، وبين عبد شمس بحيث إنه يقال إن هاشما وعبد شمس ولدا توأمين فخرج عبد شمس في الولادة قبل هاشم ، وقد لصقت إصبع أحدهما بجبهة الآخر ، فلما نزعت دمى المكان فقيل سيكون بينهما أو بين ولديهما دم فكان كذلك ، ويقال : إن جباههما كانت ملتصقة بعضها ببعض ، فأخذ السيف ففرق بين جباههما: وكانت المنافرة بين هاشم بن عبد مناف بن قصي ، وبين ابن أخيه أمية ابن عبد شمس بن عبد مناف ، وأصبح هاشم بعد هذه المنافرة منفردا بزعامة بني عبد مناف بمكة " ..

وخلاصة القول عند المقريزي أن هاشما كان له السبق في إطعام وسقاية حجيج بيت الله بسبب كرمه وسعته ، وكان اسمه عمرو وأطلق عليه هاشم لهشمه الثريد في بيت الله الحرام ، وقد حاول عبد شمس تقليده ففشل ونفرت منه حجاج بيت الله الحرام .. لم يكن أمام عبد شمس إلا أن صب غضبه وحقده على أخيه ونافره على خمسين ناقة سود الحدق تنحر بمكة وعلى جلاء عشر سنين وجعلا بينهما الكاهن الخزاعى جد عمرو بن الحمق فقال الكاهن ، لقد سبق هاشم أمية إلى المآثر ، فأخذ هاشم الإبل فنحرها ، وأطعم لحمها من حضر وخرج أمية إلى الشام فأقام به عشر سنين. فكان هذا أول عداوة وقعت بين بني هاشم وبني أمية ، ولم يكن أمية في نفسه هناك، وإنما رفعه أبوه وبنوه ، وكان مضعوفا وصاحب عهار ...

يختم المقريزي بالقول : " ثم تمادت العداوة بين البيتيْن حتى قام سيد بني هاشم أبو القاسم محمد بن عبد الله بمكة يدعو قريشا إلى توحيد الله تعالى ، وترك ما كانت تعبد من دون الله " ..

لقد نشأ الجيل الأول من عبد شمس وأولاده الثلاثة (حبيب ، وأمية ، وأبو العاص) يكرهون هاشم وولده الوحيد عبد المطلب كرها شديد .. وجاء الجيل الثاني من أمية وأولاده ، وكانوا يكرهون عبد المطلب وأولاده .. ثم تبعه الجيل الثالث من حرب وأولاده ، وكانوا يكرهون عبد المطلب وأولاده .. ثم ظهر الجيل الرابع من صخر (أبو سفيان) وأولاده ، وكانوا يكرهون محمدا وأولاده ، وفى هذا الجيل رضخ أبو سفيان مُكرها بالدخول إلى الإسلام لحماية نفسه وأولاده من الفناء على يد عدوه اللدود محمد ..
أبقى الجيل الرابع الممثل في صخر بن حرب (أبو سفيان) على عقيدته خافية مع أولاده وكبار قبيلته من الطلقاء ، لكن النبي (ص) أدرك ذلك سريعا وحذر المسلمين من اقتراب بني أمية من الحكم ، بل وصفهم بالشجرة الملعونة في القرآن ، وبأنهم ينزون على منبره نزو القردة ..

ثم جاء الجيل الخامس بعد وفاة النبي (ص) من معاوية وأولاده ، وكانوا يكرهون عليا وأولاده ، إنه الجيل الذهبي لبنى عبد شمس ، وفيه هنأهم كبيرهم - الفاشل في القضاء على محمد والحاصل منه مع قومه على عفو استثنائي - وقال لهم " يا معشر بني أمية إن الخلافة صارت في تيم وعدى حتى طمعت فيها ، وقد صارت إليكم ، فتلقفوها بينكم تلقف الكرة ، فوالذي يحلف به أبو سفيان ما من جنة ولا نار " ..

لقد كان الجيل الخامس جيلا دمويا بكل ما تحمل الكلمة من معاني ، وقد وقع في هذا الجيل ما كان الرسول (ص) يحذر منه

، فقد استولى بنو أمية على الحكم ، وقتل معاوية عليا والحسن ، وقتل ابنه يزيد الحسين وأربعين تقريبا من أهل البيت في موقعة واحدة قسمت ظهر المسلمين ، وقتل المروانيون (من نسل العاص شقيق أبى سفيان) وأنصارهم من يظهر للقيادة من أئمة أهل البيت ، واحدا بعد الآخر ..

نجا واحد فقط من الهاشميين من الموت ونجح في الاختفاء ، وهو المهدي .. إن أبناء بني أمية وجندهم مستمرون في الحكم حتى اليوم بخيلهم وخيلائهم ، وسوف يتقابل ويتقاتل آخرهم ، وهو السفيانى (من نسل آكلة الأكباد هند أم معاوية) مع آخر بني هاشم وهو المهدي (ع) لحسم الموقف كما دلت روايات أئمة أهل البيت المنقولة عن النبي (ص) ، فعجل الله بفرجه ، آمين ..

ولله در من قال :
عبد شمس قد أضرمت لبنى هاشم * نارا يشيب منها الوليد
فابن حرب للمصطفى وابن هند * لعلى وللحسين يزيد

(ملاحظة : أطلق أهل الحديث الذين يدورون في فلك الأمويين على هذا الجيل اسم " القرن الخيري الأول " من خلال الحديث المشهور الذي رواه البخاري ، الذي سيتضح من خلال تلك الدراسة أنه يترصد مناقب أهل البيت ويعلى من شأن من قتلهم أو بغضهم .. ونود أن نذكر تعليق العلامة الألباني – توفى في عام 1999 م – على هذا الحديث حيث قال ما يلي :
" بهذه المناسبة لابد لي من وقفة أو جملة معترضة قصيرة ، وهي : أن الشائع اليوم على ألسنة المحاضرين ، والمرشدين ، والواعظين ، رواية الحديث بلفظ : خير القرون قرني ، هذا اللفظ لا نعرف له أصلا في كتب السنة ، مع أن هذا الحديث دخل في زمرة الأحاديث المتواترة لكثرتها ، وإنما اللفظ الصحيح الذي جاء في الصحيحين وغيرهما ، إنما هو بلفظ : خير الناس قرني وليس : خير القرون قرني ، راجع الألباني في " سلسلة الهدى والنور " شريط رقم 396 على اليوتيوب) ..

رائف محمد الويشى
سانت لويس – ميزورى - أمريكا
elwisheer@yahoo.com
تابع مقالات سابقة لكاتب المقال على مدونته " ثوار مصر " وعنوانها كما يلي :
www.thowarmisr.com